محمد شكري...

صعلوك الأدب الحديث

دفاعًا عن تدريس «الخبز الحافي»

□ ماجدة النويهي

في خاتمة هذا الملفّ رأينا أن نورد رسالة الصديقة د. ماجدة النويهي التي رحلتْ عنّا في ٢٠٠٢/٦/٤، والتي وجّهتْها ـ بالإنكليزية ـ إلى رئيس الجامعة الأميركية في القاهرة في ١٩٩٩/١/٢٢ عقب الأزمة التي طالت د. سامية محرز بسبب تدريسها رواية شكري الخبز الحافي في الجامعة المذكورة. (تُراجع مقالة محرز في الآداب ١٢/١١، ٢٠٠٢).

عزيزي الرئيس غيرهارت،

أَكْتب لأعبِّر عن قلقي العميق إزاء الأحداث التي تتكشّف تباعًا بسبب تدريس د. سامية محرز كتابَ **الخبز الحافي** لمحمد شكري في الجامعة الأميركية بالقاهرة. أَكْتب بصفتي أستاذةً للأدب العربيّ، وخرّيجةً من الجامعة الأميركية بالقاهرة، ولأنّني أيضًا ـ على مستوى أكثر شخصيةً ـ ابنةُ أستاذ عريق ورئيس قسم الدراسات العربية في هذه الجامعة [المقصود: د. محمد النويهي ـ الآداب]. إنّني أحتجّ، وبكلّ قوة، الجامعة الأميركية على دَعْم وحماية د. محرز كليًا، وذلك للأسباب التالية:

١ ـ إنّ د. محرز هي، بلا أدنى شكّ، باحثة وأستاذة للأدب العربيّ الحديث من الطراز الأول، وهي تَحْظى بالاحترام والإعجاب الشديديْن في العالم. وحين يفكّر تلاميذُنا هنا في جامعة كولومبيا [حيث كانت النويهي تدرّس] بتخصيص فصلٍ أو سنة كاملة للدراسة في الجامعة الأميركية بالقاهرة أو يوشكون على الالتحاق ببرنامج «كاسا» [لتعليم العربية أو إتقانها]، فإنّ من بين أُولى النصائح التي أُسْديها إليهم هي أن يستيقنوا من الاتصال بالدكتورة محرز وأن يحاولوا أن يَدْرسوا مساقًا على يدها. وكانت التقارير القادمة من تلاميذنا عند عودتهم إلى جامعة كولومبيا، دائمًا، متوهّجةً بالمديح والإعجاب بها.

٢ ـ إنّ سيرة شكري الروائية الذاتية ليست نصًا مبهمًا ولا بورنوغرافيًا، بل أثرٌ راسخٌ من آثار الأدب العربيّ المعاصر. وقد تُرجم إلى لغات عدة، ودُرِّس في جامعات عدة ضمن المواد المتخصّصة بالأدب العربيّ والآداب العالمية، وقام نقّادٌ مختلفون من نقّاد الأدب العربيّ ـ بمن فيهم أنا ـ بكتابة أبحاث وتحليلات عنه. صحيح أنّ هذا النصّ يتضمّن تفاصيل غير مستحبّة أخلاقيًا، لكنّ هذا يقودني إلى نقطتي التالية.

٣ ـ إنّ من طبيعة الأدب الجادّ ـ والأدب العربيّ ليس استثناءً هنا ـ أن يتعامل مع موضوعات حسّاسة ومثيرةٍ للجدل. بل الحقّ أنّ هذا هو تحديدًا مصدرُ قوته. فكلّنا يَعْلم أنّ نجيب محفوظ، الحائزَ جائزةَ نوبل، يملأ على الدوام أعمالَه التخييليةَ بشخصيات تشكّك في وجود اللّه وقيمةِ الدِّين. وثمة حشدٌ ضخم من الأعمال الأدبية العربية التي تُعالج أمور الجنس بأمانةٍ جارحة. ولأَذْكرْ فقط بعضَ الأمثلة من أعمالِ كتّابٍ لا غبارَ على مكانتهم العالية:

فيوسف إدريس يصف بشكل روتينيّ، وبتفاصيل نابضةٍ بالحياة، أحداثًا من قبيل طفلٍ ينام تحت سرير أمه فيَسْمع أصواتًا ناجمةً عن ممارستها الجنسَ مع زبائنها (**لأنّ القيامة لا تقوم**)؛ أو من قبيل أُمٍ وبناتٍ ثلاث يمارسن الجنس ـ وبوعي تامّ ـ مع زوج الأم بسبب عدم وجود رجلٍ آخر (**بيت من لحم**). أما يحيى الطاهر عبد اللّه فيبدأ تحفته **الطوق والإسوارة** بوصف رغبةِ أختٍ في أخيها، وشمِّها لسرواله الداخليّ ولموضع الإبطيْن من قميصه الداخليّ قبل أن تغسلهما (أي السروالَ والقميصَ)؛ ثم يصف لاحقًا كيف تنتهي هذه الرغبةُ السفّاحية إلى علاقة سادية ـ مازوخية بين الأخ والأخت.

أستطيع أن أحبِّر الصفحات تلو الصفحات بأمثلة أخرى عن تفاصيل جنسية صارخة من أعمال كثيرة في الأدب العربيّ، لكنّ النقطة التي أودّ أن أركّز عليها هي التالية: إنّ هؤلاء الكتّاب لا يُضمِّنون أعمالَهم تفاصيلَ جنسيةً راعبة لكي يُفْسدوا قرّاءهم، أو لكي يُغروهم بأن يقوموا بأفعال مشابهة. على العكس: إنّهم يؤمنون ـ وهم على حقّ ـ بأنّ الأدب لا يؤدّي

سيرة شكري الروائية ليست نصًا مبهمًا ولا بورنوغرافيًا، بل أثر راسخ من آثار الأدب العربيّ المعاصر

تغييرًا إيجابيًا في المجتمع، ولا يُسْهم في خلق أناس أخلاقيين، إنْ هو حَصَرَ نفسَه بتصوير مواطنين مستقيمين ملتزمين بالقانون يقومون بأفعال خيِّرة. إنّ دور الكاتب لَهُو أحرى بأن يقارَنَ بدور الطبيب: فمثلما يحتاج الطبيبُ، من أجل شفاء جَسَد المريض، إلى الكشف عنه وفحصِهِ بكلّ عريه والتعامُلِ مع كلّ أحشائه ودمه وبوله، إلى آخره، فإنّ على الكاتب أن يَكْشف المجتمعَ البشريَّ بكلّ قباحاته وقمعه من أجل حثّ القرّاء على المشاركة في النضال سعيًا إلى خلق عالمٍ أفضل. ومثلما لا نَمْلك أن نَحْرم طلّابَ الطب حقَّ ـ بل واجبَ ـ تشريح جسد الإنسان، فإنّنا لا نَمْلك أن نَسْمح لطلاب العلوم الإنسانية أن يحوّلوا أبصارَهم عن تشريح الطبيعة البشرية والمجتمع البشريّ بكلّ الأبعاد والتجلّيات. إنّ عبارة «لا حياءَ في الدين» يُسْتخدم بشكل دائم من قِبل أساتذة العلوم حين يَشْرحون للأهالي لماذا يَنْبغي على بناتهم ـ على سبيل المثال ـ أن يَلْمسوا الأعضاءَ التناسليةَ الذكورية، ويجب أن تُطبَّقَ تلك العبارةُ على دراسة العلوم الإنسانية أيضًا.

٤ ـ نقطتي الأخيرة تتعلّق بالجامعة الأميركية في القاهرة، كمؤسسة. لقد كنتُ ومازلتُ شديدةَ الفخر بخلفيتي التعليمية فيها، ونشأتُ على ذكرياتِ فخر أبي بالانتماء إليها. وآمل أن أستطيع مواصلة الشعور بذلك الفخر. إنّ أهمّ ما يجعل هذه الجامعةَ تَشكّل حيّزًا هامًا وخاصًا في مصر هو التزامُها الحريةَ الأكاديميةَ والمبادئَ التعليميةَ الخاصة بالعلوم العقلية، وهذا ما يُتيح لها أن تدرِّب الشباب والشابات لا على مجرّد ترديد المعلومات ترديدًا ببغائيًا وإنّما على تنمية طاقتهم على التحليل وطرح الأسئلة والامتحان النقديّ، أيْ ـ بكلمة ـ على أن يكونوا بشرًا مفكّرين غير أنّ الجامعة الأميركية بالقاهرة، على امتداد الشهور القليلة الماضية، وبدءًا بحادثة منع تدريس كتاب ماكسيم رودنسون [عن النبيّ محمد ـ راجع الآداب ١١/١٢، ٢٠٠٢]، بدأتْ تنكث بالتزامها ذاك؛ وهذا أمرٌ مروِّع. إنّ على الجامعة الأميركية، بدلاً من تبنّي نبرةٍ اعتذاريةٍ تراجعيةٍ لن تسترضي ـ كما أؤكّد لكم ـ أعداءها بل يُمْكن كثيرًا أن تُفْقدها أصدقاءها، أن تشدِّد على نقاط قوتها، وهي كثيرة: فهي قد خَرّجتْ، من الكلية ومن برنامج «كاسا» معًا، عددًا كبيرًا من الأكاديميين والمحترفين الذين عملوا ـ من بين أمورٍ أخرى ـ على تحسين صورة المصريين والعرب والمسلمين في الغرب. إنّ طلاب هذه الجامعة، ليسوا كما يعتقد بعضُ النقّاد على ما يبدو، شلّةً من الأولاد الذين غَسَلَ الأميركيون عقولَهم؛ وهذا ما تُثْبته تظاهراتُ الطلاب الأخيرة ضدّ قصف أميركا للعراق. ويأتي شباب وشابات من جامعاتٍ على امتداد مصر (من طنطا، وأسيوط،...) لاستخدام مكتبة هذه الجامعة ومخزن بيع الكتب فيها، اللذيْن يَعدّونهما ملاذيْن للساعين وراء المعرفة وثمة كثيرون من طلاب الجامعة يتطوّعون للعمل في المستشفيات ودُور الأيتام والمدارس، إلخ، ويلتزمون التزامًا تامًا العملَ مع فقراء مصر ومسحوقيها. المفارقة اللاذعة هي أنّهم، من خلال اطّلاعهم على أعمال كعمل شكري، يَكْتسبون معرفةً بـ/وفهمًا لـ/مَنْ هم أقلُّ حظوةً منهم في الحياة؛ وهذا ما يَنْبغي أن يُوضَحَ للنّاس.

إنّني أحثّكم على دَعْم د. محرز، ودَعْم القيم التي تقوم عليها الجامعةُ الأميركية بالقاهرة ـ من أجلها، ومن أجل هذه الجامعة، ومن أجل مصر، ومن أجلنا جميعًا. وشكرًا.

جامعة كولومبيا، نيويورك

ترجمة الآداب

ماجدة النويهي

اقرأ تعريفًا عنها في الصفحات التالية